مصباح الأرواح

في سلوك طريق الفتاح

لمولانا الأستاذ العلامة العارف بالله الورع التقي

الشيخ أحمد أبي الوفاء الشرقاوي

رضي الله عنه

الحمد لله الذي فتح أبواب شهوده لمن أقبل عليه ، ومنح بإسعافه وجوده من أحسن السير إليه . أحمده سبحانه وتعالى طهر أرواح المريدين لحضرته العلية ، وأروى سرائر الطالبين بكؤوس مشاهدتهم لذاته القدسية ، والصلاة والسلام على مظهر تجلياته ، و مجلى أنوار حضرته ، وعلى جميع الآل والأصحاب وسائر الأتباع والأحباب .

أما بعد ، فإن من أجل نعم الله تعالى على عباده هدايتهم إلى ما يقربهم إليه سبحانه وتعالى ، وتوفيقهم إلى ما يرفع عن بصائرهم أستار الحجب المانعة لهم عن مراقبة كبريائه وجلاله ومشاهدة أنوار بهائه وجماله التي هي غاية مراقي السعادة ، ومنتهى مدارج السيادة .

وقد تفضل سبحانه وتعالى فجعل في كل عصر أئمة يدعون الناس إلى ذلك ، ويوضحون لهم فيه السبل والمسالك ، ويقومون فيهم بالحث على الإقبال عليه سبحانه وتعالى ، ويستفزون قلوبهم إلى التوجه إليه ، والبعد عن كل ما يوجب الحرمان منه عز وجل ، و يحببونهم في الله ورسوله ، ويشوقونهم إلى التمسك بعروة دينه القويم ، والاعتصام بحبل صراطه المستقيم ، حتى تنصبغ قلوب المسترشدين بهم بصبغة الله جل شأنه ، وتنطبع أرواحهم على محبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فتظفر بكمال إيمانها ، وترتع في رياض عزها وإحسانها ، وتفوز في الدنيا بتمام السيادة ، وفي الآخرة بختام السعادة ، وذلك هو الفوز المبين .

ولم يزل هؤلاء الأئمة ولن يزالوا إن شاء الله تعالى شموسا تسطع منهم أشعة الهدى وبحارا تجري منهم في القلوب أنهار الإقبال على الله سبحانه وتعالى ، وأسبابا يتوصل بهم إلى رفع الحجب المانعة عن اجتلاء أسرار الحق وشهود

أنواره ، وأُسُودا ضارية في محاربة القواطع ، ومكافحة الموانع القاطعة لطريق الوصول إلى الله عز وجل .

وقد كان والدنا الأستاذ سيدي أحمد بن شرقاوي من أشد الناس غيرة على هـذه الطريق (الخلوتية) ، وأحرصهم على إعلاء شأنها ، وأقواهم عزيمة ، وأعلاهم همة في مدافعة كل من يعدو عليها ، وقد أعانه الله تعالى وساعده ، ونصره في ذلك وأيده ، فقد مضت على الطريق مدة من الزمن تـصدعت فيهـا قوائمهـا ، وتهدمت فيها أركانها ودعائمها ، وتلاشت بين الناس حقيقتها ، ولـم يبـق إلا أطلال من قوالب ، ألفاظها تدور على ألسنة المنتسبين إليها وليست من حقيقـة الطريق في شيء ، وقد جاهد فيها رضي الله تعالى عنه حتى رفع من هامتها ما خفضه الباطل وأحيى منها ما أماته الفساد ، ولم يزل كذلك حتى لبى نداء الرفيق الأعلى وانتقل من دار الفناء إلى دار البقاء .

الإذن للأستاذ في الإرشاد

وكان رضي الله تعالى عنه قد أذن لي بالإرشاد قبل انتقاله بنحو شهر ، ثم كـرر الإذن لي مرة أخرى بعد أيام مضت من ذلك ، ولم يكن إذنه لي على ما اعتيد في الإجازات من الإعلام والإشهار، وقد أنعم الله تعالى على كثير من الناس بالرغبة في التمسك بهذه الطريق ، والانتظام في عقد هذا الفريق ، وله سـبحانه مزيـد الحمد والمنة ، وحَسَّنَ بعض منهم الظن بهذا الفقير فطلبوا مني إرشادهم ، وإني لأعلم من نفسي ما الله به أعلم من سيء أحوال وأفعال ، وكثير ذنوب وعيـوب وأوحال ، ورأيت أن الفساد قد مازج القلوب و سَرَتْ في أرواح الطالبين الغفلـة عن علام الغيوب ، وتخلل في نفوسهم مرض الإعـراض عـن الله جـل شـأنه فتجرعوا كؤوس حرمانهم ، وانهمكوا في البعد عـن جنابـه الأقـدس بجميـع جوارحهم وأركانهم ، حتى صارت جميع الحواس حجبا قاطعة عن الله ، موجبة لقطيعة العبد عن شهود مولاه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد عمت على الناس هذه المصائب والبلايا ، وعظمت علـيهم هـذه الخطـوب والرزايا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فكيف يدعو منادي الهدى على منار الفساد ؟ أم كيف ينادي منادي التقريب على منار الحرمان والإبعاد ؟ فكنت أجيبهم بما أنا عليه معتذرا لهم بضعفي عن تحمل

أثقال هذا الأمر الخطير ، ودللتهم على من هو أولى مني بهذا الأمـــر وأجـــدر ، وأرشدتهم إلى من هو أقوى وأقدر ، ولكن مازال الكثيرون يلحون فـــي الطلـــب علي ، ورأيت من خواص الإخوان استحسان إجابتهم ، فكنت أعجب لطلب الناس مني ذلك مع عدم علمهم بإذن الأستاذ الوالد لي بالإرشاد ، وأحمد الله ســبحانه وتعالى على ستره عنهم لأني كنت أستنسم منه نـــسمات الراحـــة والارتيـــاح ، وأستروح ببعدي عن تلك الأخطار أرواح السرور والانشراح .

لكن لما رأيت أن الامتناع عن إجابتهم ربما كان قعا لطريق الحق سبحانه وتعالى ، وخشيت أن يكون ذلك مما يدعو إلى زيادة الإعراض عنها ويؤدي إلى ضياعها وحرمان أهل الصدق من جِلاء قلوبهم ، وتمتعهم بشهود أنوار محبوبهم .

ورأيت أيضا أن ذلك فيه ترك للنصيحة الواجبة خصوصا لمن طلبها فتحتمت علي إجابة طلبهم ، ودخل قوم على يد هذا الفقير في الطريـــق نـــسأل الله ســبحانه وتعالى أن يدلهم عليه ، وأن لا يجعلنا حجابا لهم عمن يقربهم إليه .

الباعث على تأليف هذه الرسالة

ورأيتهم في احتياج إلى معرفة حقيقة الطريق التي ندعوهم إليهـــا ، ونعاهـــدهم على التمسك بها . وفي افتقار إلى علم ما يلزمهم ويتحتم عليهم مـــن الأخـــلاق والآداب التي تجب عليهم بهذه المعاهدة ، فإن الغالب إن لم يكن الكل لا يعرفون للطريق معنى سوى كلام يقرءونه بألسنتهم يـــسمى (بـــالأوراد) ، وانتـــساب بأفواههم إلى من يأخذون عنه ذلك ، وهذا غاية الجهل بالطريق ، حتـــى صـــار المنتسبون إليها في بُعد عن ذوق لذة الطلب لحضرة مولاهم ، وتجافٍ عن موارد من عَمَّهم بإحسانه وأولاهم ، فساقني ذلك إلى تأليف هذه الرسالة ليستنير بنور إرشادها المريدون ، و يهتدي بها في سلوك طريقنـــا الـــصادقون ، وســـميتها (مصباح الأرواح في سلوك طريق الفتاح) وأسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفـــع بها ويجعلها خالصة لوجهه الكريم ، وسببا للتمسك بصراطه المستقيم وطريقـــه القويم ، وإلى الله أبرأ من الحول والقوة فأقول :

أساس الطريق العلم و العمل بالشريعة

اعلم _ أيها المريد _ أن طريق القوم هي ملازمة الأعمال والأحوال التي يترتب على مداومة العمل بها زوال اشتغال القلب بغير الله ، وصرف نظره عن كل مـــا

عداه ، حتى يستنير بأنوار تعلقه بالحق واشتغاله به عن جميع الأغيار فيتأهل بذلك إلى دوام شهوده ، ومطالعة أنوار معبوده .

وهذه الأعمال والأحوال لا يمكن أن يترتب عليها ذلك إلا إذا كانت مما جاءت به الشريعة المطهرة الغراء ، فإن الخلق محجوبون عن أن يدركوا بعقولهم ما يوَصِّل إليه ، ممنوعون عن الدخول لحضرته من غير الأبواب التي فتحها سبحانه وتعالى لخلقه وجعلها طرقا لمن يريد الوصول إليه . لأن حضرته سبحانه عزيزة رفيعة ، حصينة منيعة . وتلك الأبواب هي الأعمال التي طلبها من عباده واختارها للتقرب بها لجنابه ، ومعلوم أنه لا يمكن العلم بها إلا من شريعته الغراء ، وملته السمحة الحسناء . فكل ما كان فيها مطلوبا له ، محبوبا منه فهو الذي يمكن المسير به إليه ، ويحصل التقريب بفعله لديه . وكل ما كان محرما فيها مكروها منه لا يتأتى به ذلك ، إذ كيف يُتَصَوَّر أن يُدْخَلَ لحضرته من غير أبوابها ؟ أم كيف يُتَوَهَّمُ أن يُتَوَصَّل إليه من طريق منع حضرتَه عمَّن تدنَّس باقترابها ؟ فإنه سبحانه وتعالى قد أخبر وهو أصدق القائلين بأن من حاد عن شريعته وتجافى عنها فقد ساء مصيره ، وأوقعه في دَرَكَات البعد عن مسيره . فليس بممكن بعد ذلك أن يحصل القرب بأمر جعله تعالى سببا في البعد منه ، وموجبا للقطيعة عنه . لأن ذلك مغالبة له ، ولن يغلب اللهَ شيءٌ وهو غالب على كل شيء .

البدع قطيعة عن الله

فظهر لك أن كل أمر لم يرد في الشرع تصريحا أو ضمنا ، وجميع البدع المخالفة له يستحيل أن تكون طريقا للحق سبحانه وتعالى ، ولا يمن أن يكون العمل بها موجبا للقرب منه عز وجل ، وكل داع يدعو الناس إلى التلبس بتلك البدع الخارجة عن دينه القويم فهو إنما يدعوهم إلى البعد عنه تعالى ، ويدنيهم من الشيطان ويوقعهم في شرك الهوى فله في الدنيا خزي وفي الآخرة عذاب عظيم .

معنى السير إلى الله

ومعنى السير إلى الحق عند أهل الطريق رضي الله عنهم تخليص القلب من اشتغاله بأحوال هذا العالَمِ وتعلقه بها ، وتطهيره من أقذار انهماكه فيها وتخليته عن أن يشتغل بها عن الله تعالى .

الأوراد من أهم أصول الطريق

ولما كانت الروح عاجزة عن انفكاكها من قيود تلك الشواغل لكثرتها وقوة علائقها ، وتراكم عوائقها حتى صارت لا تقدر وحدها على الخلاص منها ، ولا تقوى بذاتها على الخروج من سجنها اختار القوم من أنواع العبادات المطلوبة شرعا هذه الأوراد التي حتَّموها على مريديهم وأوجبوا عليهم اشتغال ألسنتهم وقلوبهم وجوارحهم بها ليكون لهم من جنس شواغل هذا العالم ما يصرفهم للتوجه إليه سبحانه وتعالى ، ويساعدهم على الخلاص من الموانع التي تشغلهم عن مراقبته ، والقواطع التي تحملهم على التعلق بغيره .

فلذلك صارت هذه الأوراد من أهم أصول الطريق وأعظم الأركان فيها ، والمطية التي تجاب بها قفارها وفيافيها ، ولا يصل للمريد خير إلا باعتناقها ومداومتها ، ولا ينال من الطريق نصيبا إلا بالعكوف عليها ومحالفتها فإنها مورد القرب والإمداد ومنهل الإسعاف والإسعاد .

فيا أيها المنتسبون لهذه الطريق بأفواهكم ، المنتمون إليها بدعاويكم وشفاهكم كيف تُعرِضون عن أصل الخيرات وعنه تلهون ، وتَنْأَوْنَ عن سبيل المَبَرَّات وتبتعدون ؟ فكم فرطتم في هذا الأمر وتركتموه ؟ وتجافيتم عن هذا الخير وهجرتموه ؟ مع أن التفريط في شيء منه أصل بُعدكم وحرمانكم ، والإهمال في أدائه سبب صدكم وهجرانكم . فبادروا بالوفاء به فهو طريق النجاح ، وانهضوا بالله فيه فهو سبيل الفلاح .

زوال الحجب المعنوية تكون بالإقبال القلبي على الله

واعلم أن التمتع بنعمة الشهود ، والتلذذ بالوصول إلى حضرة الواحد المعبود يستحيل في دار الدنيا حصولهما بجارحة من الجوارح ، لأنها لا تُدْرِكُ إلا المحسوسات ، ولا تُحِسُّ إلا ما يماثلها في النعوت والصفات ، وقد تنزه سبحانه وتعالى عن ذلك وتقدس ، وإنما الأرواح هي المختصة بتلك النعمة العظمى ، والوصول إلى هذا المقام الأرفع الأسمى .

ومعلوم أن الحجب التي تمنع وصول هذه النعمة إليها أمور معنوية ، وهي اشتغالها بالأغيار وصرف نظرها إليها حتى تصاب بمصيبة الإعراض عن الله تعالى ، فلابد من زوال تلك الأمور المعنوية التي قامت بها وعرضت لها من فعلٍ روحيٍّ يعالج به زوال تلك الأمراض ، وترتفع به أثقالها عنها ، لأنه من البديهي لدى كل عاقل أن الحركات اللسانية والأفعال الجسمانية لا تؤثر في تلك الأمور المعنوية ولا تفيد في رفعها شيئا ، بل يتوقف خلاص الروح منها على فرارها من سجنها ومعاناتها لتركها ، وذلك يكون بإقبالها على الله سبحانه وتعالى وملاحظتها له ودوام رغبتها في القرب منه . فاشتغال الجوارح والأركان بالأوراد مع خلوها عن توجه الروح لا يفيد في تطهير القلب من تلك الأكدار ، ولا يحصل به رفع هذه الأستار .

فمن اكتفى في الطريق بمجرد اشتغال لسانه وجوارحه ، وأعرض بروحه عن خالقه ومانحه فهو مسكين محروم ، مبعد مذموم .

وللقوم رضي الله عنهم في معنى توجه الروح الذي لا يحصل السير إلى الله إلا به عبارات عالية ، فقد ذكر كل منهم ما وصلت إليه همته ، ولا شك أن المريد لا يصح أن يكلف بأحوال العارفين فإن أعمال الرجال لا تقوم بها الأطفال ، وربما كان تكليفه بها سببا في ضعف همته لما يراه من بُعدها وعُسر نَيلها ، وإنما يُؤمر بأن يقصد بفعل الأوراد إرضاء مولاه سبحانه وتعالى عنه ، واشتغاله بما يحبه ، طالبا من جنابه إنقاذه من كل ما يشغله عن حضرته معتقدا أنه تعالى مُطَّلِعٌ على كل أمر فيه ، عالم بظاهره وخافيه ، ملاحظا افتقاره إليه تعالى في كل أحواله ، مستعينا به على دوام ملاحظته والتوجه إليه . ولْيَدُمْ على ذلك في جميع مدة اشتغاله بالورد .

وجوب القصد إلى المعاني في الأوراد

ويجب أن يلاحظ معاني الأوراد على حسب إمكانه ، وأن يكون قاصدا لها كأنه مُنْشِئ لها ، لِمَا احتوت عليه من الدعوات والمطالب ، لا أن يكون كالمخبر الحاكي لكلام سابق ، ولْيحافظ على ذلك في جميع أوراده .

وهذا الذي ذكرناه ممكن من كل مريد اتصف بشيء من الطلب للحق سبحانه وتعالى ، فمن وسوست له نفسه بصعوبة ذلك عليها فليعلم أنه ليس من طلاب الحق في شيء ، وأنه محروم من هذه الطريق .

ومما عمت به البلوى وعظمت به المصيبة أنك ترى غالب المريدين يحسن الواحد منهم حفظ الورد ، فإذا أراد الاشتغال به أطلق فيه لسانه وتركه يجري على حروفه ويسير على ألفاظه وأعرض بقلبه عنه وتركه يرتع في مراتع البعد عن الله ، ويجني من الأغيار ثمار البعد عن مولاه .

وربما لا يشعر الواحد منهم بشيء من ألفاظ الورد فضلا عن معناه إلا بكلمة يرتفع بها صوته ، وربما كان لا يشعر بشيء منه أصلا ، بل بآخر العدد الذي يعُدُّ به صيغة الورد أو الذكر ، ومع ذلك يظنون أنهم من المريدين لله سبحانه وتعالى ، طالبين لقربه ورضوانه ، العاكفين على أعتاب كرمه وإحسانه .

حاش لله وحاشا لحضرة عزته وكبريائه أن تهان حتى يصل إليها من يزهد فيها ، أو تذل حتى تسعى وراء من يعرض عنها ولا يعتنيها .

ومن العجب أنك ترى الواحد منهم يجود بتوجيه فكره ، ويسخى بصرف قلبه في أمر لا يفيده في دنياه ولا في آخرته ، بل ربما ضره فيهما ، وتراه يستلذ صرف جميع أوقاته في مثل ذلك ، ومع ذلك يبخل غاية البخل بتوجيه قلبه لحظة إلى جناب مولاه عز وجل ، ويضن بإقبال روحه على طاعة مولاه ، ويثقل عليه صرف أي وقت في ذلك .

فهل هؤلاء هم المريدون الصادقون ؟ نعم مريدون ولكن لبعدهم عن الله وحرمانهم !! صادقون ولكن في انقيادهم لنفوسهم وطاعتهم لشيطانهم !!

في الأوراد تطهير للقلب وتنوير له

فهل ذلك هو المقصود من الأوراد ؟ كلا بل المقصود إنما هو مساعدة الجوارح للقلب في إقباله على الله تعالى ، فإذا تجردت عن ذلك صارت لا فائدة لها في تطهير القلب من الشواغل وتنويره بأنوار شهود الحق سبحانه وتعالى ، ولو أتت كل جارحة من الجوارح بعبادة أهل الأرض والسماء .

نعم لا ينبغي ترك الأوراد والتفريط فيها ولو تجردت عن حضور القلب ، لأن اشتغال جارحة بالعبادة مع ترك القلب وجميع الجوارح لها خير من ترك الجميع

لها وأحسن من اشتغال القلب وجميع الجوارح بغيرها ، ولأنه ببركة المواظبة عليها يحسُن للمريد حاله ، ويتجمل إن شاء الله تعالى مآله .

ولكن يحق لك يا من حرمت من تلك الثمرات و فاتتك لطائف تلك الهبات أن تنوح أسفا على روحك ، وتموت أسى على ضياع مسراتك وأنسك ، بل يحق لك أن يذوب قلبك دموعا وزفرات ، ويسيل حزنا وتذهب نفسك حسرات .

كيف لا وقد صرت حليف البعد والحرمان ، طريحا في أودية الصد والهجران ، قتيل الفؤاد بسهام القطيعة ، مبعد الروح عن سُوْحِ الرحمة الوسيعة .

فبادر يا أخي وتدارك أمرك فالخطب والله عظيم ، وتأمل ما أنت فيه فمصابك جليل جسيم إذا تمادت نفسك في إعراضها ، واستعذبت مرارة أوصابها وأمراضها وأَهْمَلْتَ أنت في توجيهها إلى مولاك ، وتأخرْتَ عن سوقها إلى الإقبال على من خلقك وسواك .

طرف من آداب تلاوة الأوراد

فعليك يا أخي بالاعتناء بالأوراد والاهتمام بشأنها ، والمحافظة على حُسن السَّمْت في أثنائها ، وأن تقوم بها على الكيفية التي طلبها أهل الطريق إذ اشترطوا في تأديتها كيفية مخصوصة ، وأن تكون لتأديتها مكانة عندك ، وأن تراها ضرورية مقدمة على كل أمر ، وأن تلازم الأدب بعد الفراغ منها زمنا ، وبهذا يرجى لك إن شاء الله تعالى تمرين نفسك على الإقبال على مولاك عز وجل وإلا فأحسَنَ الله في روحك عزاك ، وأعظم الله أجرك في وجودك ومَحْيَاك .

ولا بأس بأن يتكلم المريد أثناء الورد بما يحتاج له في مصالحه المعاشية أو أموره العادية كمؤانسة الضيف وإدخال السرور على مسلم بقولٍ معروف .

ولْيلاحظ أن ذلك مما يحبه الله ويرضاه ليكون له بهذه النية كالورد .

ولْيحذر من اللغو والزيادة في ذلك عما تقتضيه المصلحة ، فإنه اشتغال بغيره جل شأنه وهو أكبر عيوب المريدين ، وأقبح نقائص الطالبين ، بل هو الموجب لمحوهم من ديوان الطلب للحضرة الإلهية ، المقتضي لمنعهم عن السير إلى مشاهدة أنواره البهية .

وجوب تلاوة الأوراد صحيحة

ومما ينبغي التنبيه عليه ويجب الالتفات إليه تصحيح ألفاظ الأوراد ، والإتيان بها على ما يطابق قانونها الشرعي من مد الممدود وقصر المقصور وغَنِّ ما تجب فيه الغُنَّة و توفية كل كلمة ما تستحقه من ذلك ، فإن الإخلال بشيء من تلك الأحكام يؤدي إلى عدم اعتبارها سرعا وعد الإثابة عليها وقد فشا في المنتسبين للطريق هذا الداء ، فترى الواحد منهم لا يمر على أكثر الكلمات إلا وقد أخل بنظامها وقطَّع أوصالها .

ومعلوم أن الأوراد مجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والدعوات المشتملة على أسمائه تعالى ، واللحن في شيء من هذه الثلاث محرم بالنصوص الشرعية .

فتنبه أيها المريد إلى خطر ذلك ، وتفطن لهذه الدسائس والمهالك ، والله يتولى هداك ، ويصرف عنك شواغل نفسك وهواك .

شدة الحاجة إلى المرشد

واعلم أن الشواغل عن الله سبحانه وتعالى ، والدواعي التي تدعو النفس إلى الإعراض عن الحق ، والعلائق التي تجذبها إلى التعلق بغيره سبحانه وتعالى قد تكاثرت أنواعها ، واختلفت أصولها ، وتشعبت فروعها ، وخفيت أسبابها ، واشتد التباسها ، حتى صارت لا يحيط بدقائقها إلا الراسخون في الدين ، العارفون بأسرار الشريعة والكتاب المبين .

وقد عَسَرَ على من يريد من الناس الخلاص من تلك العلائق والتخلي عن هذه العوائق معرفتها والعلم بطرق النجاة منها ، فاحتاجوا في ذلك إلى أولئك العارفين ، واضطروا في سيرهم إلى الله لهؤلاء المرشدين .

السر في تأثر المريد بشيخه

وقد اقتضت إرادة الحق سبحانه وتعالى أن ارتباط الأرواح بعضها ببعض يوجب لها سريان المزايا الموجودة فيها ، وتبادل الغرائز المنطوية عليها بينها ، فإنك ترى الصَّدِيْقَيْنِ إذا كملت محبتهما وقوي ارتباطهما تتوافق أميالهما وطباعهما وتتشابه نفوسهما ، وترى الإنسان أيضا يتأذى بأذية من يرتبط معه بأي رابطة وينْسَرُّ لسروره ، وما ذلك إلا لأن استعداد الروح يقضي عليها بالتأثر بأحوال الروح التي ترتبط بها ، ويوجب لها مشاركتها في أطوارها وخواصها ، ولو كان

كل من الروحين مسجونا في سجن بشريته ، مقيدا بقيود حجابه وطبيعته ، وهذا أمر يشهد له العيان ، ويؤيده الحس والوجدان .

فلذلك جعل أهل الطريق رضي الله عنهم ونفع بهم اتخاذ الشيخ المرشد والارتباط بروحه المتعلقة بالله ، المتمتعة بدوام شهوده ورضاه من أعظم ما يحتاج إليه مريد السير إلى الله تعالى ، وأهم الأصول التي يتوقف عليها سلوكه في هذه الطريق ، لأنه إذا كان الارتباط بالروح المحجوبة يوجب الموافقة لأميالها والتطبع بطباعها ، فالارتباط بالروح التي أُطلقَتْ من قيودها وصار ديدنها الإقبال على معبودها وطبيعتها العكوف على أبواب رضوانه وسليقتها الفرار عما يجرُّ إلى بُعده وحرمانه يقتضي سريان تلك الصفات إليها ، ويستلزم إفاضة هذه المزايا عليها ، بل هذه الروح المطلقة أولى بسريان أحوالها إلى الروح المتعلقة بها من تلك الروح المحجوبة لأن هذه قد خلصت من عقالها ، وتلك ضعيفة مكبلة بأوحالها .

تأثر المريد بشيخه على قدر تعلقه به

ولكن حصول مزايا روح الشيخ (أي الكامل الراسخ في الدين العارف بأسرار الشريعة والكتاب المبين) ووصول أحواله إلى المريد يتوقف على قوة ارتباطه به ودوام تعلقه به ، وهذا الارتباط لا يكون إلا بأمر يحمله عليه وهو اعتقاد كماله وعلو مقامه ، واستحضار أن روحه هي الحبل الذي يصل بسبب تعلقه به إلى خلاصه من الشواغل المانعة له عن مولاه عز وجل ، وملاحظة أن صلاحه فيما يقتضيه نظره له لأنه أدرى بمرضه وما يفيد فيه ، وأعلم بما يطهر قلبه ولحضرة التقريب يدنيه .

ويجب على المريد مع شيخه أن لا يغفل عن ملاحظته لأن ذلك بعد عن التعلق بروحه في ذلك الوقت وهو خسارة عليه لأنه محتاج في كل آن إلى الالتصاق بروحه لتسري إليه أخلاقها وسجاياها المنقذة له من أوحال شواغله التي تعوقه عن مطلوبه ، وتعطله عن الوصول إلى شهود محبوبه ، ويجر ذلك إلى آداب تجب عليه في حق شيخه ، وفي ذكرها تطويل يخرج بنا عن الغرض من هذه العجالة ، وقد ذكرها شيخنا العلامة ناصر الطريق وترجمان أهل التحقيق الأستاذ سيدي أحمد الطاهر حفظه الله تعالى ونفعنا به في كتابه (مطية السالك)

وشرحه (الكشف الرباني على المورد الرحماني) فليراجعها من شاء والله الموفق .

هذا ومن الأحوال التي أصابت قلوب المريدين فأمرضتها و والخطوب التي ألمت بأرواحهم فصدتها عن سبيل الله تعالى وأبعدتها : أمور استخفوا بارتكابها وهي أعظم المهلكات ، واستسهلوا فعلها وهي من أصعب المتلفات ، فقد فرطوا في أصول الطريق ، وأفرطوا في ارتكاب ضدها ، حتى أدى بهم ذلك إلى البعد عن الله تعالى وأوقعهم في دركات الإعراض عن جنابه .

وجوب محبة الأخوان في الله

فقد أكد أهل الطريق رضي الله نهم في طلب محبة الإخوان ، وارتباط أرواحهم بعضها ببعض ، واتحاد قلوبهم بالألفة والصفاء بينهم ، وأفاضت في الحث على ذلك آيات الكتاب ، ونادت به أحاديث سيد الأحباب ، وتطابقت في ذلك أقوال القوم وعباراتهم ، وتواترت في معاني أسراره رموزهم وإشاراتهم .

وفي الحقيقة إن محبة الإخوان هي مجمع الأسرار ، وتآلفهم في الله هو منبع اللطائف والأنوار ، فقد اقتضت حكمته تعالى أن يجعل في جميع المؤمنين مزايا ، ويودع فيهم كرائم الأخلاق والسجايا ، وفرقها بينهم فكل منهم أخذ منها ما قُسِمَ له بالقسمة الأزلية ، واستوى على نصيبه الذي أعطته له يد الإرادة الإلهية فربما وُجِدَتْ في الفاسق مزية لا توجد في أهل الصلاح والتقوى ، وربما وُجِدَ في الصالح التقي ما لا يوجد في الأصلح الأتقى ، وذلك أمر مشهود ، متعارف معهود .

من آثار المحبة تفاعل الأرواح

فإذا كان المريد مرتبطا بإخوانه محبا لهم صَفِيَّ الفؤاد لهم سرى إلى روحه من مزاياهم المتفرقة ، ووصل إليه من رياض إيمانهم المونقة ما يقتضيه حكم الارتباط الروحاني ، وصار الواحد منهم كأنه سائر بأرواح جميع إخوانه ، فإذا تخلصت روح أحدهم من بعض الشواغل التي تشغلها عن الله وتناءت عنه أحست جميع الأرواح المرتبطة بثقله (أي بثقل ذلك البعض الشاغل) ونفرت منه ، وحاولت بعدها عنه ، وإذا تحلت روح واحد منهم بأمر يوجب لها رضوان الله سبحانه وتعالى والقرب منه رأيت أرواح الباقين ترفرف بأجنحتها عليه

وتنجذب بكليتها إليه ، وتَحِنُّ إلى التحلي بحليته ، وتتشوق إلى ارتقائها لمعانقته حتى تتخلص من العوائق المانعة لها عنه .

ولذلك قال بعض أهل الطريق إن الارتباط بالأخ الصالح يحصل به السير إلى الله تعالى كما يحصل باتخاذ المرشد ، والمحبة بين المريدين هي الميزان الذي يعرف به الواحد منهم مقدار اتصاله بالطريق ، والقسطاس الذي يعلم به صحة دعوى الإرادة وكذبها ، فإن الأرواح ترتبط بأي علاقة ، وتميل لأدنى مناسبة .

الأخوة الروحية أقوى من الأخوة الجسمانية

وانظر إلى الأخوة الجسمانية مثلا فإنك تراها ضعيفة المناسبة بالنسبة لهذه ، وذلك لأن أرواح الإخوة في الأصل ليس لها ارتباط خاص عن بقية الأرواح فإن الكل صادر من مصدر واحد ، وأجسام الإخوة أيضا متغايرة متباينة لا يرتبط بعضها مع بعض برابطة ، ولكن لما كانت هذه الأجسام محلا للأرواح وأن أصلها وهو الأب واحدا صار لبعض تلك الأرواح تعلق ببعضها لمناسبة أن أجسامها التي تسكن فيها وإن كانت متباينة لكن أصلها الذي تسبب في وجودها ونشأت عنه مُتَّحِد ، ومع ضعف هذه الرابطة تراها أوجبت أحكاما واقتضت أمورا كثيرة كالغيرة على كل أمر يضر بالأخ ، والشفقة عليه مما يعتريه من الأمراض ، والحزن لما يلحقه من أي أذى ، والرغبة في كل ما يسره ، والاهتمام بكل ما يؤدي إلى سلامته ، إلى غير ذلك من الأحوال المشاهدة ، فكيف يكون الحال إذا كان الروحان يجتمعان مباشرة في أصل واحد ، ويرتبطان معا بحبل واحد ، ويتحدان معا في طريق واحدة ، ويستقيان من مشرب واحد ؟ لا شك أن ميلها يكون فوق ذلك الميل بطاقات ، وارتباطهما يعلو على ذلك بدرجات وطبقات .

ضعف الأخوة الروحية لضعف الارتباط بالطريق

فإذا ضعف فيك الميل لأحد من إخوانك في الطريق أو رأيت كراهة لمن ارتكب منهم أمرا غير لائق ، أو رأيت عدم غمٍّ على تَلَبُّسه بما يوجب تأخره في الطريق ، أو رأيت نفور نفسك ممن آذاك منهم ، فاعلم أن ذلك لضعف ارتباطك بالطريق ، وتخلخل وصلتك بها ، فإنها لو كانت قوية صحيحة لكنت تحزن على أي أذى يلحق بهم ، وتغتمُّ من حصول أي أمر يخالف المطلوب منهم ، وكنت تقدم النصيحة لمن يخطئ منهم بغاية الرفق واللين ، وتستجلب رضاهم عنك بكل ما

يمكن ، وترى نفسك مضطرا لصفاء قلوبهم عليك ، صَفُوحاً لهم عن كل ما يمس جنابك منهم من أذيتهم لك .

المريد الصادق يؤثر محبوبه على نفسه

وذلك فضلا عن كونه مما تقتضيه تلك الرابطة وتسنلزمه ، فإن المريد الصادق في الطلب من يقدم محبوبه على نفسه ، بل لا يلتفت إليها في جانبه ، وإذا كان إيمان أخيك وسيره في طريق الوصول إلى الله لم يوازها عندك أذيته لك ولم تشفع له لديك وُصلَته بأهل طريق الحق عز وجل فكيف تكون صادقا في طلب الوصول إلى الله وأنت مُفَضِّلٌ نفسَك عليه ؟! أم كيف تكون مريدا للخلاص من نفسك وأنت تقدم ما تشتهيه وتميل إليه ؟! بل الأولى بك أن تُسَمَّى مريد النفس والشيطان ، طالب البعد والخسران .

فيا أيها المريد إن الرابطة التي تدَّعيها والأخوة التي تزعم أنك من أهليها ليست بأمر تستره شقشقة اللسان ، بل هو نور تظهر أحكامه في خارج العيان .

أين أحكام رابطتك الروحانية ؟ وأين دلائل وصلتك الربانية ؟ قد بينا لك أن لارتباط الأجسام مع ضعفه مقتضيات يقتضيها ، فيلزم أن يكون لارتباط الأرواح أمور تبعد أطرافها ومراميها ، وأنت لم تقم في هذه ببعض ما تقتضيه تلك الرابطة ، وأصبحت أحكامها هينة لديك ساقطة ، فإذا رأيت من أخيك أدنى شيء أو ظننت ذلك نابذته بالعداوة وهاجرته ، وجافيته بالكراهة ونافرته ، متناسيا ما بينكما من رابطة المؤاخاة متغافلا عما بينكما من المعاهدة في طريق الله _ لا شك أن ذلك علامة حرمانك من الطريق ، ودليل على عدم دخولك في هذا الفريق ، وما هي إلا إشارة الحرمان رفعت على رأسك ، وراية الشقاء والخذلان ترفرف على صرح نفسك .

قال صاحب القدم الراسخة ، والأمجاد الباذخة ، الأخ الأخص في الله تعالى ، صاحب المفاخر والمعالي ، الشيخ محمد الغزالي في كتاب له بعد كلام يخاطب فيه إخوانه (ما نصه) فما بالكم يعامل بعضكم بعضا معاملة الأجانب وأنتم أخوة ؟ وتتصاحبون مصاحبة الأباعد وأنتم صنوان ؟ جعلتم الأخوة تحت حكم النفوس والأغراض فإن توافقا وإلا فالتنافر والصد والإعراض ، فمنكم من ينطوي من جهة أخيه على غل من غير سبب بل لكونه لم يوافق غرضا ما وإن

كان ذلك الأخ أعلم عالم وأفضل فاضل ممن يجب احترامه على كل مسلم _ إلى أن قال _ ومنكم من يزعمون أن إخوانهم أعز عليهم من أنفسهم ، ومتى تعامل اثنان في أمر دنيوي تحاسبا على الفتيل ، وإن رأى كلاهما أو أحدهما أنه مغبون في شيءٍ يسيرٍ تنافرا وكثر بينهما القال والقيل ، وجاءت الدعوى بعكس الدليل ، فلا ترى للأخوة حكما يقف تجاه ذلك الشيء القليل ، وحينئذٍ يتضح العزيز من الذليل . انتهى كلامه .

فيا من جمعتكم في الله جامعة الإخاء ، ومدت لكم يد العناية حبل الود والصفاء ، كيف تقابلون النعمة بكفرانها ، ولا تقومون بواجب حمدها وشكرانها ؟

واعلموا أنكم قد عاهدتم الله تعالى وأشهدتموه ، وآتيتموه المواثيق وأعطيتموه على أن تسيروا إلى حضرته العلية ، وتتمسكوا بطريقه السمحة المرضية ، فلا يصح بعد ذلك أن تخلُّوا بشيء مما عاهدتموه عليه ، ولا يجوز أن تفرطوا في أمر تعلمون أنه مطلوب لديه ، وإلا كنتم مع المنتقم الجبار متلاعبين ، ولعهوده ومواثيقه خائنين ، فاملئوا _ بالله _ قلوبكم من الصفاء والمحبة ، وأترِعُوها لإخوانكم بالولاء والمودة ، فإن التمسك بالطريق لا يكون ما دامت قلوبكم متجافية عن بعضها ، وعلى قدر صفاء بعضكم لبعض يكون تمسككم بها .

وجوب قبول النصيحة والشكر لها

ويجب على كل واحد منكم أن يجعل في صدره متسعا لقبول النصيحة ممن يلقيها إليه ، ولْيعلم أن ذلك من أجَلِّ نعم الله عليه ، فإنه قد جعل له من بصائر إخوانه ما يقوم مقام بصيرته التي احتجبت بحجاب الإعراض عن الله تعالى ، وهذا من خفي الألطاف به ، وجميل الرفق والرأفة والإسعاف لقلبه ، فلا يصح أن يقابل العبدُ _ وخصوصا إذا كان مريدا مقبلا على الله سبحانه _ هذه النعمة العظيمة بالاستخفاف بها أو النفور ممن ساقها الله على يديه ، بل يجب عليه أن يحمد الله عليها ، ويشكر من كان السبب فيها ، ويستزيده من أمثالها ليكون قلبه مستأنسا بدوام ما يرد إليه من رحمات الحق وجميل هباته التي منها ما يصل إليه من النصائح على أيدي إخوانه ، وبذلك يجعل كل واحد من إخوانه بابا لنزول تلك الرحمات الإلهية ، ومنفذا لوصول تلك الرقائق الرحمانية .

و لا يصح له أن يرد نصيحة لكونه لم يفعل الأمر الذي نُصِحَ لأجله فضلا عن أن يجافي من ينصحه فيه كما هو الواقع من كثير من المحرومين ، بل يلزمه أن يتقبلها بقبول حسن متأدبا مع الناصح له أثناء نصحه تأدبا مع الحق سبحانه وتعالى فإنه هو المولى في الحقيقة لنعمتها ، المتفضل في الأصل بإفاضتها ، ولو علم المريد عِظَمَ هذه النعمة عليه وعرف مقدار توصيل هذه المنحة إليه لما وسعه أن يتلقاها ممن يوصلها إليه إلا بأكمل الحالات ، ولا يسمعها منه إلا بأجمل الصفات والهيئات ، فإنها ساعةٌ تصل فيها من الله جلائل النعم إليه ، وتتنزل فيها من الحق لطائف الرحمة عليه .

ولكن مما يحزن الفؤاد ، وتتفتت به الأكباد ، أن غالب المريدين تضيق صدورهم حرجا ، وتظهر رعونتهم عندما تصل إليهم هذه النعمة على يد أحد من الناس ، وربما جعلوها سببا في الجفاء لمن ينصحهم ، وموجبا للنفور منه خصوصا إذا كان المنصوح لم يفعل الأمر الذي نُصِحَ فيه ، فيرى أن الناصح أهانه واستخف به ، وظن فيه ما لا يصح أن يظن به ، مع أنه على أي حال لم يخرج الناصح عن كونه أوصل للمنصوح نعمة ساقه الله لتوصيلها له ، وهي ذخيرة له إن لم تظهر له فائدتها في الحال ، فهي نور له يستضيء به في الاستقبال .

ومن العجب أن يكون المريد طالبا للخلاص من نفسه وإذا أرشده أحد إلى ترك بعض رغائبها ، والتخلي عن شيء من نقائصها ، تراه يغار على اعتقاد الخطأ منها ويغضب من نسبتها للنقص . فليت شعري كيف يكون معتقدا أن جميع أحوالها عيوب ونقائص تعوقه عن مولاه ويريد أن يتخلص منها بدخوله في الطريق ، ومع ذلك لا يرضى بأن يُنهى عن بعض تلك الأحوال والعيوب . لاشك أن ذلك تناقض في أقواله ، وتعارض في أحواله .

التحذير من كراهة النصح والناصح

والمصيبة العظمى أن الذين يوفقهم الله تعالى للمواظبة على الأوراد أو يمن الله عليهم بتعلم ما يحتاجون إليه من العلم يرون أن نصيحتهم أمر منكر لا يليق بهم ويملئون صدورهم بالغل لمن يواجههم بالنصيحة كأنهم استغنوا بما عندهم عن نعم الحق سبحانه وتعالى التي من أَجَلِّهَا نصح إخوانهم لهم مع أنهم أولى الناس بقبولها وأجدر بأن يروا أنفسهم أنهم أحوج الخلق إليها استزادةً من منح الله

عليهم ، فهؤلاء المبعدون حقا عن الصواب ، المحرومون عن سلوك المنهج المستطاب ، فقد جعلوا نعمة الله عليهم سبب حرمانهم ، وصيروا رحمته لهم سبب جحدهم وكفرانهم ، فإنا لله وإنا له راجعون .

وجوب الترفق في النصح

ويجب على الناصح في حال نصحه لأحد من إخوانه أن يكون كالأخ الذي يقدم الدواء لأخيه المريض ، فكما أنه تحمله على ذلك شفقته على أخيه وحنانه عليه ورغبته في شفائه من مرضه ومحبته لأن يكون متمتعا في جميع أوقاته بنعمة الصحة . وإذا رأى منه كراهة لاستعمال الدواء وتضررا من مشقته لا ينفر منه لذلك بل تزداد عليه رأفته ويجتهد في الرفق به ، وإذا امتنع منه أو لم يفد في شفائه ازداد همه وحزنه .

كذلك يلزم المريد أن ينصح أخاه شفقة عليه ورأفة به من أمراض روحه ، وإذا رأى منه كراهة لنصيحته لا ينفر منه بل يجتهد في الرفق به ، وإذا امتنع عن العمل بها ولم تفد فيه لا يجافيه ويكرهه لذلك ، بل يزداد همه وحزنه على عدم شفائه من ذلك المرض الذي أَلَمَّ بروحه .

التحذير من ترك التناصح ومن الغضب من النصح

وقد غلب على المريدين حجاب رعونتهم حتى تناسوا هذا الأصل المهم وصاروا لا يتناصحون في أمر ارتكبوه ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه ، وترى الواحد منهم إذا رأى من أخيه شيئا لا ينصحه فيه خشية أن يتغير خاطره ويؤدي إلى المخاصمة بينهما ، وإذا حسَّن به الظن ونصحه غضب ذلك المنصوح وأخذته العزة بالإثم واشتدت كراهته لأخيه فأداهم ذلك إلى إنكار بعضهم على بعض في غيبتهم وامتلاء قلوبهم بالأحقاد وإشرابها باعتقاد بعضهم النقائص في بعض ، وجرَّتهم هذه الأحوال إلى تزكية نفوسهم ورضائهم عنها وهو هدم لأساس الدخول في هذه الطريق ، وخروج عن الانتساب إليها بالكلية ، فإن مبناها على الفرار من أحوال النفس والكراهة لرغائبها الموجبة للبعد عن الله عز وجل ، فكيف يكون المريد طالبا للخلاص من أحواله وهو راضٍ بها ؟!!

فتنبه أيها المريد إلى هذه الأخطار العظيمة ، وتفطن لهذه المتالف الجسيمة ، فإن ذلك تلاعب بسبيل حضرة ذي الجلال والإكرام ، واستخفاف بطريق القدوس

السلام ، وهل يكفيك من الطريق مجرد دعوى دخولها مع هـدمك لأول أركانهـا وأول أصولها ؟!!

من أصول الطريق الاجتماع على الأوراد

ومما يتأكد في هذه الطريق ويتعين على المريدين اجتماعهم على الأوراد فإنـه وحده ورد مستقل بل هو عند القوم من أعظـم أورادهـم ، وبحـر فيوضـاتهم وإمدادهم . فمن أتى بالورد منفردا فقد فاته ورد آخر وهو اجتماعه مع إخوانه عليه فإن فيه أسرار تعز معرفتها ، وأنوار تعلو عن إدراك الأكثر حقيقتها .

وقد ورد في الشريعة الغراء الحث على الاجتماع على العبادة ، وأن الصلاة في الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة ، وهو أدعى إلى تهميم الـنفس وتوجيهها إلى الإقبال على الله سبحانه تعالى من قراءة الورد منفردا لما توجبه مشاركة الناس في الفعل من الائتناس به والتقوية عليه ، وهدم الفتـور فيـه ، فربما بلغ المريد في قراءته للورد مع الجماعة مرة ما لا يبلغـه باشـتغاله بـه منفردا مرارا عديدة ، ولذلك حض أهل الطريق عليه ، وحذروا من الاسـتخفاف به وتركه ، حتى ذكروا من ضمن الأسباب التي يطرد بها الشيخُ المريـدَ عـدم حضوره مجلس الأوراد . وقد جنت على بعض المريدين يد الجهالة ، وأعمـاهم عن طريق السعادة حجاب الضلالة فاستخفوا باجتماعهم على الأوراد وفرطوا فيه بل استبدلوا به اجتماعهم على لهوهم وتعوضوا عنه اشتغالهم بِلَغْوِهِم واستعذبت نفوسهم ذلك ، واستلذت حرمانهم من نفحات العلي المالك . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال العلامة الشيخ محمد الغزالي في كتابه المتقدم ذكره _ بعد كلام في الاجتماع على الأوراد _ ما نصه : فلعلك تتيقظ وتقلع عما ابتلي به الكثيـرون يتركـون الجمع على الأوراد والاشتغال بالرواتب المكلفين بها ويذهبون حيث يتوارون عن إخوانهم ويشتغلون باللغو واللعب والضحك وعندما يحضرون مع الناس أو مـع بعض إخوانهم ممن ليس على شاكلتهم يظهرون التأدب والوقار والسكينة وحُسن السمت وجميع الأحوال الكاذبة ، ومتى انفرد بعضهم ببعض رجعوا لما كانوا فيه فيصيرون لعبة الشيطان ويضيعون ثمرة الاجتماع ويقعون فـي مهلكـة الريـاء والنفاق فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. انتهى كلامه .

ثمرات اجتماع المريدين

واعلم أن أهل الطريق جعلوا اجتماع المريدين بعضهم ببعض من الأمور المطلوبة ، وذلك ليقتبس بعضهم من بعض مكارم الأخلاق ونفائس الشيم وليهمم بعضهم بعضا في الإقبال على مولاهم ، ويتعاونوا على الاشتغال بطاعته والقيام بما يقرب إليه ، ولبذل النصيحة بينهم فيما يحصل من الهفوات ليتعلم جاهلهم ويتنبه للصواب عارفهم ، فإن المريد لا يمكن أن يحيط بمعرفة ما يعوقه في هذه الطريق ، وربما دسَّت عليه نفسه ذلك في أمر من الخيرات ، ومن عادة النفوس استخفافها بوقوع الأمور التي لا تُنْهَى عنها ولو علمت أنها خطا كما هو مشاهد ، فهي في غاية الاحتياج لمن ينبهها على ذلك .

ويترتب أيضا على اجتماع المريدين تأكيد رابطة المحبة بينهم ، وتوثيق عروة المودة والصفاء بين قلوبهم . وقد أدخل الشيطان على بعض المنتسبين للطريق في هذا الأمر المطلوب ما صرفهم به عن طريق طلب الحق عز وجل إلى تلذذ النفس برغباتها وائتناسها بشهواتها فجعلهم يرغبون في الاجتماع ويألفونه لكن لتسلية نفوسهم بما تميل إليه من اللغو والخوض فيما لا يعنيهم وغير ذلك حتى صارت اجتماعات غالبهم شيطانية ، وآلت إلى حرمانهم من هذه الطريقة المرضية ، ووجد الشيطان بينهم مجالا في هذه الاجتماعات فصارت محرومة من الثمرات والخيرات ، وأورثتهم النفور بينهم والإساءة والأذية لبعضهم والبذاءة ، نسأل الله أن ينشلهم من هذه الأوحال وينقذهم من هذه الأهوال .

الحث على التعرض للنفحات الإلهية

ومما استهانوا به من الخيرات وفرطوا فيه وأهملوه تعرضهم لساعات الرحمات الإلهية ، واعتناؤهم بالأوراد الخاصة بها كالقيام في السحر مع أنه هو الوقت الذي يتميز فيه الطالبون للحق سبحانه وتعالى من غيرهم من المعرضين عن الإقبال على أبوابه عز وجل ، وترى الواحد منه يبخل بقيام تلك الساعة ويعز عليه صرفها في تحصيل رضوان الحق وقربه ، ويقضيها في راحة نفسه معرضا عن مولاه في أجمل ساعات إحسانه ، مبتعدا عنه في أعظم أوقات تقريبه ورضوانه ، فكيف يدَّعي طلب الجليل من يُعرِض عن أعتاب حضرته ؟!! وكيف

يخطب وصل الجميل من لا يتذلل على أعتاب عزته ؟!! بل ذلك دليل على كـــذب دعواه ، وحجة على بطلان ما ادَّعاه .

وجوب التوجه إلى الله في أداء الأوراد

ويجب على المريدين في تأديتهم للأوراد أن لا يخرجوا بها عما قصده أهل هـــذه الطريق من توجههم إلى الله سبحانه وتعالى واشتغالهم بما يقربهم إليـــه ، وقـــد سرى في بعض المريدين هذا المرض حتى أوقعهم في خطأ كبير بل هـــو مـــن أعظم القواطع عن الله عز وجل ، فقد جعل القوم من أورادهم اجتماع مريـــديهم على ذكر الله جل شأنه لتشرق على قلوبهم أنواره ، وتلوح لأرواحهم أسراره ، وجعلوه لازما منهم بعد العشاء ليحصل به ركنان من أركان الطريق وهما (السهر والذكر) .

حكمة إباحة الإنشاد في مجالس الذكر

ولما اعترى الضعف همم الطالبين أباحوا فيه اتخاذ منشد يسمعهم من كلام القوم ما يثير هممهم ويقوي عزائمهم ويرغبهم في الاشتغال بذكر الله سبحانه وتعالى ويحببهم فيه .

الانحراف بالذر والإنشاد عن أصلهما

وقد أداهم الجهل بحقيقة الطريق والاســـتخفاف بـــشأنها أن بعـــض المريـــدين يقصدون من مجالس الذكر سماع نغمات المنشد وتـــرويح نفوســـهم بترنمـــه ، وقصروا أنظارهم عن ذلك جاعلين الذكر واجتماعهم عليه آلـــة لتحـــصيل هـــذا الغرض القبيح ، ويمتدحون فيما بينهم مجلس الذكر إذا استحسنوا فيـــه نغمـــات المنشد ، وينتقصونه إذا لم يروا فيه ذلك ، وربما تركوه بالمرة حتى صار هـــذا الركن العظيم مستهانا عند الناس ، يعدونه من زينات الأفراح ، والأمور العادية التي يكمل بها نظام مجتمعاتهم .

وما كفانا هذا الحرمان والضلال والخسران حتى صار بعض المنشدين يقصدون بهذا الأمر الشريف ويريدون بهذا الركن الرفيع المنيف الحصولَ على شيء من حطام الدنيا ، فتراهم يرفعون أصواتهم بكلام ظاهره استمداد من صاحب الغيـــرة العظمى على أصول هذه الطريق صلى الله عليه وسلم وباطنه أذية لحـــضرته ، وتقطيع لأوصال محجته . وينادون بأقوال ظاهرها الحث على محبـــة الله تعـــالى

وباطنها محاربة لجنابه المقدس ، وإهانة لذكره جل شأنه بجعله آلــة لتحــصيل أقذار الدنيا وأوساخها ، وصار هؤلاء الذاكرون يظنون أنفسهم مقبلين علــى الله سبحانه وتعالى ، مع أنهم واقفون في صفوف المحــاربين لحــضرته العليــة ، ويحسبون أنهم واقفون على أبواب عز مولاهم وهم في الحقيقة عاكفون علــى أعتاب أهل الدنيا ، ويتوهمون أنهم متعززون بعز ذي الجلال ، مع أنهم متسببون في إهانة أسمائه ومتَّسمون بذلة السؤال .

تبدل أحولا أهل الطريق

فكم سطت جنود الباطل على هذه الطريق واعتدت ، وكم صالت عليهــا جيــوش الفساد واحتشدت ، وكم فرط المنتسبون إليها حتى استضعفها الناس واستذلوها ، وكم أفسد المنتمون إليها حتى ذلت في عيون الخلق واستهانوها ، وكــم كثــر الجهال فيها وأكثروا فيها الفساد، وكم حرمت ممن يمد لها حبل الصفاء والوداد. قد أصبحت منكسة الأعلام بعد أن كانت مرفوعة ، وأمست مهدومة الحصون بعد أن كانت عزيزة ممنوعة . فإنا لله وإنا إليه راجعون ، قد اشتروا والله بذكر ربهم ثمنا قليلا ، وابتعدوا عن طريق الصواب وضلوا سبيلا .

فيا أيها المريدون لا يليق أن تضعوا جواهر الطريق حيث يهــان شــرفها ، ولا يصح أن تلقوا كؤوسها حيث تستذل لطائفها وتحفها ، بل تجب المحافظة علــى إعلاء منارها ، وتلزم المواظبة على تحصين رياضها وديارها . فلا تفعلوا شيئا من أمورها إلا إذا كان معززا شريفا ، ولا تقدموا عليه إلا إذا كان معظما منيفا . فإنه يُخشى على من تسبب في هتك حرماتها أن يعاقب بنار البعد والحرمــان ، ويجازى بعذاب الطرد والهجران .

وجوب بُعد المريد عن مجامع البدع

ومما يجب على المريد ويتأكد عليه التباعد عن مجامع البدع الحاصلة في هــذا الزمن ، والفرار بقلبه وقالبه عن الأماكن المحتوية عليها فإنهــا خــروج عــن الشرع الشريف ومحاربة لله تعالى ومعاداة لحبيبــه صــلى الله عليــه وســلم ، ووجود المريد فيها إعانة على هدم الإسلام ، فهي محل لنزول سخطه ومرمــى لسهام غضبه وانتقامه عز وجل . والطالب يجب عليه أن يتحرى رحمات الحــق ويتهافت على أبواب كرمه وإحسانه ، ويتعرض لسحائب تقريبه ورضوانه ، ولا

تأخذه في هجر تلك البدع لومة لائم ، إذ كيف يراعي المريد لـــوم اللائمـــين ولا يخشى من سطوة رب العالمين ؟!!

وجوب تخلق المريد بالأخلاق الفاضلة

هذا ومن أهم الأصول وأعلاها ، وأرفعها عند القوم وأغلاهـــا المحافظـــة علـــى التخلق بالأخلاق العالية المرضية ، والتأدب بالآداب السامية السنية بل ذلك روح حياة هذه الطريقة وباب رياضها الزاهرة الأنيقة ، وهو الأمر الذي يتوقف عليـــه سلوك السالكين ، والشرط الذي لابد منه للسائرين ، لأنه إذا كان القـــرب مـــن أكابر أهل الدنيا والوصول إليهم لا ينال إلا بتهذيب الأخـــلاق والتحلـــي بأجمـــل الآداب والتخلي عن كل أمر لا يليق بشرف مقامهم ، فالـــسائرون فـــي طريـــق الحق المقبلون على الله بقلوبهم الطالبون الدخول بها لحضرة شهوده أولى بـــأن يتحلوا بأجمل حلية ، ويتنزهوا بأحسن خلعة لملاقاة مولاهم ســـبحانه وتعـــالى ، وأجدر بأن ينزهوا أرواحهم عن كل ما يدنسها لتكون قابلة لإفاضة أنوار الحـــق وأسراره عليها ، وإلا فلا يليق أن توضع نفائس الجواهر في أماكن القاذورات ، ولا يصح أن يجالس الملوك من يزاحم الكلاب على الأوساخ والنجاسات .

وجوب الأدب مع الخلق

ومن أهم هذه الآداب وأعظمها احترام الخلـــق وتـــوقيرهم ، وقـــد فـــرط فيـــه المنتسبون لهذه الطريق خصوصا أهل العلم منهم ، حتى أنك تـــراهم يـــستخِفُّون بكل من لا يساوهم في درجتهم ويرون أنفسهم غير مكلفين بالأدب مع أحد ، بل ربما ظنوا أن في ذلك نقصا لهم ، ويجعلون لأنفسهم مقاما لم يجعلـــه الله لغيـــر أنبيائه ، فينزهونها عن الجهل بأي حكم من الأحكام ، ويرفعونهـــا عـــن نـــسبة الخطأ في أي فهم من الأفهام ، ويأنفون ممن يعارضهم فـــي شـــيء مـــن ذلـــك ويعدونه حطاً من مقامهم .

ومع ذلك يرون أن تحليهم بالأدب مع خلق الله جل شأنه _ ولو اســـتحقوا ذلـــك بشرفهم وفضلهم _ تضييع لثمرة علمهم ، فقد جهلوا أن المقصود من العلـــم أن يتعلم العبد ما يحسن به معاملة مولاه سبحانه وتعالى ، ولم يعلموا أن أجمل مـــا يعامل به الحق الأدب مع خلقه واحترامهم وتوقيرهم وذلك هو الضلال البعيد .

فيلزم المريد أن لا يحتقر أحدا ممن يؤمن بالله ورسوله ولْيعظمه ويحترمه اقتداء بتعظيم الحق سبحانه وتعالى له بأن جعله محلا لنور الإيمان به واصطفاه لأن يكون من أتباع حبيبه صلى الله عليه وسلم ، فيكون تعظيمه له تعظيما لله ورسوله ، وإهانته واحتقاره عدم اعتناء بجنابه تعالى وحضرة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتجرءاً على فعل ما يغضب الله ورسوله .

فيا أيها المريد كيف تقبل على مولاك وأنت متلبس بما يكرهه من الأحوال ؟ وكيف تدخل حمى حضرته المنزهة وأنت متدنس بقبيح الأقذار والأوحال ؟

ويا أيها السائر إلى الله كيف تفعل _ وأنت على أعتابه _ ما يغضبه عليك ؟ وكيف تتجرأ _ وأنت ببابه _ على ما يجر سخطه عليك ؟ وكيف تسير في طريق المنتقم الجبار وأنت متحمل بأثقال السيئات والأوزار ؟ لا شك أن ذلك يوجب إبعادك وطردك ، ويقتضي حرمانك وصدك ، ويؤدي إلى انتقامه منك بخيبتك وخذلانك ، وعقابه لك بهجرانك وخسرانك .

فعليك يا أخي بتعظيم خلقه واحترامهم فإنهم عزيزون عليه ، واحذر من احتقارهم وأذيتهم فإنها كبيرة لديه . فإن من لم يحسن الأدب مع خليقته جدير بأن يبعد ويطرد من حضرته ، ومن عجز عن التأدب مع أمثاله فكيف يتأدب مع من تقدس في كبريائه وجلاله . فيجب على المريد أن لا يراه الحق سبحانه وتعالى محتقرا لأحد من خلقه مسيئا للأدب معهم فإن ذلك دليل على عدم صلاحه لدخول الحضرة الإلهية ، وعلامة على عدم لياقته للوصول إلى مشاهدة أنواره القدسية، ولْيتجنب كل أمر يؤدي إلى تضرر أحد من الناس ما لم يكن حتما عليه.

ومما دسه الشيطان على غالب المريدين ليفسد عليهم قلوبهم أنهم يحسبون أن الأدب أمر مرجعه إلى الظواهر فقط ، ومع ذلك أُدخِل عليهم أنه لا يطلب منهم مع غير إخوانهم في الطريق ، مع أن القيام بهذا الركن وهو التأدب مع الخلق إنما هو عاملة لله سبحانه وتعالى وتقرب إلى حضرته العلية ، وهو سبحانه وتعالى إنما ينظر إلى القلوب علام الغيوب ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور،مطلع على كل أمر ظاهر ومستور . وهو مطلوب له مع كل خلقه ، فكما يجب مع الأخوان يجب مع غيرهم ، فإنهم وإن لم يكونوا متآخين بالأخوة الخاصة فلهم أخوة عظيمة الشأن مؤسسة الأركان قد عقدها سبحانه وتعالى في

كتابه العزيز ، فمن استهان بها فقد عرض نفسه للوبال ، وأوقعها في مهـــاوي الخزي والنكال .

وجوب التباعد عن السفاسف والدنايا

ويجب على المريد أن يتباعد عن صغائر الأمور وسفاسفها ، ويجانـــب دنايـــا الأحوال وخسائسها ، فإذا كان أكابر طلاب الدنيا يتنزهون عن الأمور الخسيسة ، والحركات الخفيفة محافظةً على لياقتهم لمجالسة الأمراء وتقربهم إلى السلاطين والكبراء ، فلا شك أن من يريد التقرب لذي العزة والجبروت ، والوصول إلى ذي الملك والملكوت أولى بالتباعد عن تلك الأحوال ، وأجدر بترك ما لا يليـــق مـــن الأقوال والأفعال .

آداب عالية يجب على المريد التمسك بها

ويلزمه أن يكون عفيف النفس ، عالي الهمة ، عظيم المروءة ، محافظـــا علـــى عرضه كمحافظته على فرضه ، وأن يكون بعيدا عـــن التهافـــت علـــى الـــدنيا والترامي على أهلها والتطلع لما في أيديهم ، فإن هذه الطريق تـــأبى لعزتهـــا ، وتمتنع لمكانتها عن أن تمد حبلها لمن ألفت نفوسهم ذلك ، فإن ذلك مع كونـــه طلبا للدنيا وتعليقا للقلب بها فهي دناءة لا تليق بمن يطلب قـــرب الله ســـبحانه وتعالى ويسير إلى حضرة شهوده ، وهو في الحقيقة أعز مـــن طـــلاب الـــدنيا وأولى بتهافتهم عليه وتذللهم لديه ، فإذا كان يرى أهلها أعزاء بها فليكن عـــزه بطلب مولاه وانتسابه له أرفع وأعلى ، وارتشاف كؤوس إقباله على الله ألذ لديه وأحلى .

وبالجملة فيجب على المريد أن يكون على أعلـــى الـــصفات ، متخلقـــا بأحـــسن النعوت والسمات ، فإنه بمعاهدته على التمسك بهذه الطريق صارت تُعَـــدُّ عليـــه حركاته ، وتُحسب عليه خواطره وسكناته ، وصار كل أمر يقتضيه طلب الحـــق سبحانه وتعالى يتحتم عليه ، ويلزمه القيام به والنهوض إليه ، وكل أمر ينـــافي ذلك يجب عليه الفرار منه ويتحتم عليه تركه ويتأكد التباعـــد عنـــه ، وإلا كـــان كاذبا على الله ورسوله في معاهدته على السير في هذه الطريـــق ظالمـــا لهـــا بدعواه الانتماء إليها ، خائنا لها ولأهلها بتلاعبه بها بعد ما ائتمنوه على الدخول

فيها ، وقبلوه في ضمن مريديها وطالبيها ، فيخشى عليه أن يحرم من ثمـــرات التقريب والإسعاد ، ويقضى عليه بعذاب الطرد والإبعاد .

والله المسئول أن يفتح للطالبين أبواب التوفيق والهداية ، ويمنح قلوبهم رقـــائق اللطف والرعاية ، إنه سميع قريب كريم مجيب ، والحمد لله في البدء والختـــام والصلاة والسلام على مصدر الإمداد والإكرام وعلى جميع الأنبياء والمرسلين و سائر الآل والصحابة والتابعين .

وقد تم جمعها في يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر شوال سنة عـــشرين بعد ثلثمائة وألف من هجرة خير الأنام عليه وعلى آله وصحبه أفـــضل الـــصلاة والسلام .